ISSN:2605-6259
The Lixus journal of history and Humanities
دورية مغربية محكمة متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية

■**الاستشهاد المرجعي:**
-المصطفى مرتبط،تجسيرية جاك بيرك بين سوسيولوجيا الإسلام وقضايا الاستشراق،مجلة ليكسوس،العدد 49،نونبر 2023،صص:8-24 .

■**الملخص:**

يسعى المقال إلى تفكيك فكر جاك بيرك في "سوسيولوجيا الإسلام" وقضايا الاستشراق، وتتبع الامتدادات العلمية التي تحكمت في اهتماماته الفكرية، وفي صياغته لبراديغم إسلامي حداثي تنويري، أطلق عليه: "الإسلام الصحيح"، قادر على خلق توافق وبناء جسر بين ضفتي البحر المتوسط.

يبرز، كذلك، الشروط الذاتية والموضوعية، والأسس والمنطلقات المؤطرة لأطروحة بيرك "التجسيرية"، وينظر تحليلا وتمحيصا ونقدا في الجوانب الدينية والسوسيو–ثقافية التي يشرطها بيرك لتحقيق تحديث عربي إسلامي، وتلافي صدام حضاري بين أوربا والعالم الإسلامي، ويناقش منطلقات تصحيح المواقف والرؤى حول التحولات التاريخية التي شهدها ويشهدها العالم العربي والغربي من وجهة نظر "بيركية"، انطلاقا من مواجهة أشكال الجهل المتبادل، والاستقطاب العنيد، والمواقف المتكلسة التي لا تؤذن بالالتقاء.

يهدف المقال إلى إعادة بناء العلاقة بين الطبيعة البشرية والروح الإنسانية والذات العاقلة، مع التشديد على أساليب وتقنيات معالجة التصادم المذموم بين الغرب (فرنسا بالخصوص) ومسلمي البحر الأبيض المتوسط، كما يراها بيرك.

■ **كلمات المفاتيح: جاك بيرك – سوسيولوجيا الإسلام – التجسير– الغرب – صدام حضاري.**

■**Abstract:**

This research aims to deconstruct the ideas of Jacques Berque in "Sociology of Islam" and the issues of Orientalism, and to trace the scientific extensions that governed his intellectual interests and his formulation of an enlightened modernist Islamic paradigm which he called "the correct Islam." It is capable of creating harmony and building a bridge between the two shores of the Mediterranean Sea.

It also highlights the self-imposed and objective conditions, foundations, and frameworks that shape Berque's "bridging" thesis. It critically examines the religious and socio-cultural aspects that Berque stipulates for achieving Arab-Islamic modernization and avoiding a clash of civilizations between Europe and the Islamic world. The research discusses the foundations of correcting positions and perspectives on the historical transformations that the Arab and Western worlds have witnessed from a "Berquean" point of view. It starts from confronting forms of mutual ignorance, stubborn polarization, and entrenched positions that hinder reconciliation.

The research aims to rebuild the relationship between human nature, the human spirit, and rationality, with an emphasis on methods and techniques to address the condemned clash between the West (especially France) and the Muslims of the Mediterranean, as perceived by Berque

■**Key words:** Jacques Berque , Sociology of Islam , Bridging ,The West , Civilizational Clash.

تمهيد:

تتخلل عبارة "التجسير"[1] فكر جاك بيرك[2] ومعظم إنتاجه المعرفي حول الدين الإسلامي، فبقدر ما كانت اهتماماته متجهة إلى التوفيق بين المعرفة العلمية والتجربة الحية من جهة، والمعرفة العلمية والسلطة السياسية من جهة ثانية في منهجه السوسيولوجي، بقدر ما كانت "تجسيريته" التي سعى إلى إرساء دعائمها بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، الشمالية والجنوبية معلنة، واضحة وصريحة.

تستمد أطروحته كينونتها وشروط إنتاجها من تخصصه كعالم اجتماع وأنثروبولوجي وباحث في الدراسات الاستشراقية والإسلامية بالعالم العربي والإسلامي، وتعلقه الشديد بالأنماط الثقافية العربية والحضارية بحوض المتوسط، واهتمامه الزائد بتفكيك وتشريح التقاليد والعادات الزراعية والمعاملات التجارية، حيث قضى معظم حياته في المغرب والجزائر موظفا وباحثا، كما زار العديد من الدول العربية والإسلامية للاطلاع على مخزونها الثقافي ورصيدها المعرفي. إلا أن جهوده في "سوسيولوجيا الإسلام" خصوصا بعد إنتاج "إعادة قراءة القرآن" و"القرآن، محاولة في الترجمة"، ونقده ومحاولات تجديده لحقل الاستشراق ظلت غير مستساغة من طرف جماعة النخبة المثقفة والحاكمة بالضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، كما لم تنل حظها كذلك من البحث والتنقيب من لدن المفكرين والباحثين العرب بالضفة المقابلة.

---

1. نوظف هنا عبارة "التجسيرية" كمفهوم جديد، نشير به إلى الدور المحوري الذي أعطاه جاك بيرك لنفسه، كصلة وصل بين الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط،، حيث نصب نفسه ذلك الجسر الذي يمكن أن يربط بين الحضارتين الأوربية الفرنسية والعربية الإسلامية، وقد تعمدنا هنا عدم إقحام الرجل في النزعات التوفيقية التي سقط فيها العديد من المستشرقين من أمثال "مونتغومري واتس" ومن سار في فلكه، خصوصا بعدما لاحظنا نشوز الرجل من هذه النزعات وعدم استساغته لمفهوم "التوفيق".

2. ولد جاك بيرك سنة 1910 بالجزائر، من أب حاكم إداري فرنسي لمدينة فرندة بالجزائر، وتوفي في 27 يونيو بفرنسا سنة 1995، قضى جزءا كبيرا من حياته في دول مغاربية وعربية، الجزائر والمغرب بالخصوص، تقلد مناصب ومسؤوليات إدارية، وعمل مديرا تحت إشراف المراقب المدني لمحاكم السكان الأصليين، ثم تنقل بين القبائل العربية والأمازيغية بالمغرب والجزائر، مؤهلاته في اللغة العربية والأمازيغية مكنته من احتلال مناصب مرموقة، منها: نائب البلدية لمدينة فاس، ثم الرباط. بعد نقله إلى الأطلس الكبير انتهز الفرصة لإعداد أطروحته: Structures Sociales du Haut-Atlas » » "لبنيات الاجتماعية للأطلس الكبير"، التي نال بها درجة الدكتوراه، حيث عمل أستاذا في مادة التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر بكوليج دي فرانس باريس، ومديرا للأبحاث في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، وعمل أيضا كخبير لليونسكو في مصر.

ISSN:2605-6259

لقد سعى جاك بيرك إلى تقديم منظور فكري شامل ومتماسك ومتكامل، في محاولة منه لتعبيد الطريق بين الشمال والجنوب (فرنسا والمستعمرات العربية) انطلاقا من "العرب، الإسلام ونحن"، و"الإسلام في أزمنة العالم"، حيث تتخلل جميع هذه المؤلفات مواقف تثبت تمرده على الاستشراق الكلاسيكي، وتستعرض ميكانيزمات وآليات مجابهة الإكراهات الثقافية واللغوية والهوياتية اللامتجانسة وغير الثابتة، وتشنجات التاريخ في مجال انتمائي مشترك، متقارب ومختلف.

يتميز الفكر البيركي عن غيره من الدراسات والأبحاث الاستشراقية[1] والإسلامولوجية[2] التي عاصرته أو السابقة عليه بقليل بتقريب وجهات النظر، وحرصه على وضع شروط إنجاح حوار حضاري عقلاني يتأسس على محورية الإنسان، ومواجهة العداء والحقد المبطن برداء المعرفة العلمية، واحترام الآخر المختلف، ضدا على المتاجرين بالمصالح وترهيب الشعوب، أو أولئك الداعين إلى القطيعة، والساعين إلى صناعة أعداء جدد بين الأمصار العربية، وبين أقطار شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط.

لذا تغدو إعادة قراءة وتحليل المنتوج العلمي والسوسيولوجي لجاك بيرك لتحديد طبيعة الجسور التي يقيمها بين الإسلام والديانات الأخرى، وبينه وباقي الحضارات الكونية أمرا بالغ الأهمية، ليس فقط لاعتبارات فكرية معرفية، وإنما للضرورة التي تستدعيها مقتضيات ومتطلبات الواقع الآن، في ظل التحولات العميقة التي فرضتها منعرجات إقليمية وعالمية خطيرة، تنبئ بسقوط إنساني خطير، تسير نحوه دول ذات استراتيجيات هامة، لها دورها في الحفاظ على التوازنات السوسيو–اقتصادية، والمواقع الجيوبوليتيكية، في منطقة شديدة الحساسية "البحر الأبيض المتوسط".

بناء على الاعتبارات السالفة، تتأطر هذه الورقة البحثية بأسئلة إجرائية مفادها:

ما هي الشروط والاعتبارات التي على أساسها بلور بيرك "تجسيريته"؟ هل أطروحته تتمتع بإمكانية امتصاص تصادم حضاري وديني بين شمال وجنوب حوض المتوسط؟ وهل نجح الرجل فعلا في إعادة تحديد ثم تشكيل حقل الاستشراق بما ينسجم مع إسلام التنوير؟ وهل تمكن من زعزعة العقليات والقناعات حول القضايا الموروثة عن الحقبة الكولونيالية؟ وهل الواقع الحالي لدول الحوض المتوسط المتسم بالتشنج والفردانية المفرطة، والانغلاق على الذات، يفرض بالضرورة الرجوع إلى وصفة جاك بيرك التجسيرية؟

من خلال المؤشرات السالفة والتساؤلات أعلاه، تهدف هذه الورقة إلى إبراز الشروط الذاتية والموضوعية، والأسس والمنطلقات المؤطرة لتجسيرية بيرك، وتنظر في

[1]. نقصد هنا الدراسات الاستشراقية التي قام بها كل من لويس ماسينيون، وهنري كوربان، وأندري جيب، ورينان وماينون، وهي دراسات تختزل الإسلام في التوحيد والاهتمام بما هو روحي خالص، بحيث تحصر الإسلام في قدسية أبدية مبالغ فيها، فبعضها يحكم عليه بعدم قدرته على التكيف مع الديانات الأخرى، وأخرى تتهمه بالعجز والجمود في التفاعل مع باقي الحضارات الكونية.

[2]. نعني بالتحديد دراسات وأبحاث المفكرين العرب الذين حصروا الإسلام في مواقف عقائدية ومذهبية ونقاشات فلسفية ميتافيزيقية لا تراعي تأثيرات عوامل الزمان والمكان، للتوسع راجع المقالة:

Jacques Berque : « La maintenance de l'Islam » in normes, (210-223), 1966.

ISSN:2605-6259
مجلة ليكسوس –العدد 49 –نونبر2023م.

الجوانب الدينية –الإسلامية بالخصوص– والاجتماعية والثقافية التي على أساسها يمكن تحقيق تحديث عربي بمرجعية إسلامية متنورة، وتلافي صدام حضاري بين الشمال والجنوب، وتقترح الأهمية البالغة لأطروحة بيرك في الوقت الراهن، كحل لأهم القضايا الشائكة المعاصرة بين دول البحر الأبيض المتوسط.

أولا: المنطلقات والأسس الفكرية لأطروحة بيرك التجسيرية

تنامت النقاشات في العقدين الأخيرين حول مفهوم "سوسيولوجيا الإسلام"، في سياقات تاريخية وثقافية مرتبطة أساسا بالبحث في الإسلام وقضايا التشريع تحديدا دون غيره من الأديان الأخرى، وجاك بيرك من بين أولئك الذي خاضوا مغامرة البحث في هذا المجال التخصصي الطارف، حيث تفرد عن غيره بمحاولاته التشكيكية في الأحكام الجاهزة المكبلة بأغلال الفرضيات الاستشراقية الصارمة، ونقده الشديد للحركات الأصولية ذات القطب الواحد، التي ترى في الإسلام دينا دون دنيا.

وقبل تحديد المنطلقات الفكرية والنظرية التي على أساسها بلور جاك بيرك أطروحته، نرى، أولا، ضرورة التمييز بين الدراسات الدينية و"سوسيولوجيا الإسلام"، باعتبار هذا الأخير مفهوما حديثا في حقل السوسيولوجيا، والذي شكل حجر الزاوية في فكر بيرك. فإذا كان المتخصص في الدراسات الإسلامية أرماندو سالفادوري (Armando Salvatore)يعتبر "سوسيولوجيا الإسلام" مجالا استراتيجيا مهما جدا في العلوم الإنسانية والاجتماعية، نظرا لوقوعه في مجال تتقاطعه العديد من التخصصات العلمية، كعلم الاجتماع الديني، الأنثروبولوجيا، علم الأديان المقارن والتاريخ**1**، فإن بيرك كان له فضل السبق في تناول ذلك، ليس من زوايا نظرية فحسب، وإنما بشكل أمبيريقي، حيث تناول هذه الفروع بمنهج متفرد جديد خاص به في معالجة مختلف القضايا الإسلامية التي طرقها بالبحث والتحليل، يقوم على الملاحظة بالمشاركة والممارسة التجريبية.

كما يجب التمييز بين "سوسيولوجيا الدين" و"سوسيولوجيا الإسلام"[2]، فالأولى تهتم بدراسة

---

[1]. أرماندو سالفاتوري، "سوسيولوجيا الإسلام: المعرفة والسلطة والمدنية"، ترجمة ربيع وهبه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2017، ص 9.

[2]. نشير هنا أننا لسنا بصدد وضع حدود تعسفية فارقة بين "سوسيولوجيا الدين" و"سوسيولوجيا الإسلام"، لأننا نعتبر أن الثانية تبقى فرعا تخصصيا من ضمن فروع الأولى، على اعتبار أن سوسيولوجيا الدين قادرة على تفسير وتناول جميع القضايا الدينية بشكل شمولي، وبالتالي فإننا نرى بأن دراسة سوسيولوجيا الإسلام باعتماد آليات وتقنيات الباراديغم النظري التفسيري والمنهجي لعلم الاجتماع الديني ستكون هنا مسألة في غاية الأهمية.
كما لا نتفق مع ما ذهب إليه إدموند بورك في مقاله المعنون ب"فرنسا وسوسيولوجيا الإسلام الكلاسيكية 1798-1962"
« France and the Classical Sociology of Islam 1798-1962 », Burke, III, E. In: The Journal of North African Studies, Vol. 12, No. 4. (551-561). (2007).
ترجمه إلى العربية يونس الوكيلي، على اعتبار أن سوسيولوجيا الإسلام تدرس العلاقات المتبادلة بين الدين الإسلامي والمجتمع والتفاعلات بينهما، فبورك يفضل استعمال مفهوم "سوسيولوجيا المجتمعات المسلمة"، وفي هذا اختزال وإجحاف لتأثير دور الدين الإسلامي في المجتمعات سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية، حيث نجده قصر "سوسيولوجيا الإسلام" على دراسة مجتمعاته فقط.

المعتقدات والطقوس والممارسات والشعائر والاحتفالات الدينية بشكل عام، وتسعى إلى فهم الدين كمؤسسة مجتمعية لها دورها الوظيفي الهام داخل النسق الاجتماعي، أي دراسة العلاقات المتبادلة بين الدين والمجتمع والتفاعلات التي تحدث بينهما. في حين يقصد بـ "سوسيولوجيا الإسلام" تلك العلاقة الرابطة بين الدين الإسلامي والمدنية، وتفسر كيف استطاع الإسلام أن يؤثر في الشروط الحضارية القائمة، وأن يستفيد منها في تأسيس مدنية خاصة به، لها سماتها ومعالمها ووسائلها وأهدافها وغاياتها، تلتقي أحيانا وتختلف أخرى مع قيم المدنية الغربية، بمعنى أن هذه السوسيولوجيا تركز على العلاقات الاجتماعية ومعايير إنتاجها وتأثيرها في الترابطات المؤسساتية وتكويناتها، وتستهدف تيسير فهم الإسلام كقوة طويلة الأمد، توفر رابطا اجتماعيا وثقافيا، ولحمة مؤسسية لتنوع من العلاقات والترتيبات[1]، وتحاول أن تجيب، كيف أن الإسلام كمنظومة متكاملة من القواعد المنظمة لحياة الإنسان، وكشكل من أشكال الممارسات الطقوسية الروحية، لاتقف بتاتا أمام المدنية والحداثة[2]، ولا تعارض ركائزها الكبرى: العلم والصناعة والتكنولوجيا والديمقراطية والحرية.

وجاك بيرك من المفكرين الذين فهموا الإسلام من داخل حقل العلوم الإنسانية، وليس من ضمن جماعة الثيولوجيين والفقهاء. لقد فطن إلى الدور المحوري لسوسيولوجيا الإسلام في تجنب صدام حضاري بين الشرق والغرب، ووجه تفكيره إلى هذا الجانب. وانطلقت أولى محاولاته التأسيسية لأطروحته من سبر أغوار الثقافة العربية والأمازيغية، حيث أصدر ونشر مجموعة من الأعمال الفكرية والفلسفية الممهدة لأطروحته، منها: "المشرق الثاني"[3]، "المغرب العربي: التاريخ والمجتمع"[4]، "اللغات العربية في الوقت الحاضر"[5]، وهي أعمال باللغة الفرنسية، موجهة بدرجة أولى إلى شعوب الشمال، واستهدف من ورائها التعريف بثقافة العالم العربي وتقاليده وموروثاته الفكرية، وأن العرب والمسلمين لا يقلون أهمية عن الإنسان الغربي الفرنسي، ليتعمق اجتهاده بعد ذلك، في الإسلاميات وإعادة بناء الفكر الاستشراقي على أنقاض أحكام القيمة المتسرعة والعنصرية التي نشرها الاستشراق الكلاسيكي (رينان– ماكدونالد– بيكر– هرخرونيه– ماسينيون– أندري جيب– مونتيغومري واتس، رودونسون)، حيث بدأ في إنتاج سلسلة من الدراسات والأبحاث، منها: "الاسلام أمام التحدي"[6]، "أشكال

[1]. أرماندو سالفاتوري، المرجع السابق، ص 13.
[2]. هناك تيارين اثنين تناولا مفهوم الحداثة: الأول يرى بأن هناك حداثة واحدة كونية، كما في فلسفة عبد الله العروي، حيث يدعو إلى ضرورة الانخراط في الحداثة العالمية كمنظومة كليانية، والثاني يقول بتعدد الحداثات بتعدد الهويات ومحليانيتها، كما عند المفكر طه عبد الرحمن، حيث يفرق بين روح الحداثة وواقع الحداثة. للتوسع أكثر راجع: "روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية".

[3]. Jacques Berque, « l'Orient second », Paris, Galimard, 1980.
[4]. Jacques Berque, « Maghreb, Histoire et Société Alger », Duculot/S.N.E.D, 1974.
[5]. Jacques Berque, « Langages arabe du présent », Gallimard, 1974.
[6]. Jacques Berque, « L'Islam au défi », Paris, Gallimard, 1980.

ISSN:2605-6259

الإيمان في الإسلام"[1]، "إعادة قراءة القرآن"[2]، ثم "محاولة ترجمة القرآن"[3]، في محاولة منه لتقديم فكر جديد مبسط حول قيم الإسلام وقواعده وأركانه ورسالته، وأنه (الإسلام) لا يرفض أبدا قيم المدنية المعاصرة ونمط الحداثة الغربي، المتسم بالحرية والديمقراطية والعقلانية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الجيدة.

هذا الرصيد الإبستمولوجي والثقافي الهائل الذي راكمه بيرك حول الإسلام والمجتمع العربي والإسلامي، هو الذي منحه –فيما بعد– المنعة والقوة في الإعلان صراحة وبكل جرأة على تنصيب نفسه كصلة وصل، وجسرا متينا يربط بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية لحوض المتوسط، وهو ما نستشفه في مؤلفاته، خصوصا في: "قضية لن تخسر أبدا، من أجل بحر أبيض متوسط متعدد"[4]، حيث عمل على مد الجسور والتقريب بين الحضارات والثقافات واختصار المسافات.

بالإمكان جدا فهم الاهتمام الكبير الذي أولاه جاك بيرك لموضوعات سوسيولوجيا الإسلام، فأغلب إنتاجه الفكري تمحور حول التجديد والجرأة في تناول مسائل وقضايا الدين الإسلامي، حيث عارض المستشرقين الكلاسيكيين، وعلماء التاريخ، والوضعيين، والسوسيولوجيين الكلاسيكيين الذين يرون في القرآن الكريم أرشيفا جامدا وميتا، وأن الشريعةَ الإسلامية روحانية متكلسة، ولا تواكب القضايا الراهنة، ومرد ذلك إلى ظاهرة عبروا عنها بعبارة "انسداد باب الاجتهاد"[5]. في حين أن بيرك يرى الإسلام كحقيقة ترنسدنتالية، جاء ليواجه تناقضا ثلاثي الأبعاد: بين الخصوصية والشمولية، وبين الديناميكيات الجزئية والديناميكيات العالمية، وبين زخم القوى الأساسية والنقد العقلاني[6]، ويعلن أن تحليل هذه العلاقات الثلاث، بعيدا عن مشاحنات الأطراف والشعوب بشكل معتقدات وأيديولوجيات تعتبر مقياس النجاح التاريخي الحقيقي، في حين أن التقلبات والإخفاقات التي عانى منها العالم العربي في مراحل تاريخية معينة، يفسرها بفشل مؤقت من جانب الدول العربية الإسلامية في التعامل بشكل مناسب مع هذه العلاقات الثلاث[7].

لقد تتبع –بيرك– وحدة الصف التي يدعو إليها النص القرآني في الإسلام، وفهم اعتدال ووسطية الشريعة، فوجد أن التوازن هو معيار هذه الوحدة، ليؤكد بأنها إلهية، وأن التجديد والتأمل يكونا بالإيمان والعقل معا، وهما شرطا التطور والتقدم والازدهار، لأن الإسلام –باختصار– يتميز بالطابع الدنيوي المنفتح على الزمن،

1. Jacques Berque, « Aspects de la foi de l'Islam », Bruxelles, Publications des Facultés St Louis, 1985.
2. Jacques Berque, « Relire le coran », Albin Michel, 1993.
3. Jacques Berque, « Le Coran, Essai de traduction », Paris, Sindbad, 1991 – Albin Michel, 1995.
4. Jacques Berque, « Une Cause jamais perdue, Pour une Méditerranée plurielle », 1955, Paris, Albin Michel, 1998.

5. وائل حلاق، "الشريعة: النظرية والممارسة والتحولات"، ترجمه وقدم له: كيان أحمد حازم يحيى، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، 2018، ص 1 .
6. مصطفى شريف، "جاك بيرك"، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2019، ص 30.
7. Jacques Berque, « Les arabes, suivi des Andalousies », Paris, Actes Sud-Sindbad, 1997, P 91.

ISSN:2605-6259
مجلة ليكسوس –العدد 49 –نونبر2023م.

وهو كامل وشامل وثيوقراطي[1]، وهذا ما دفعه إلى القول بأن الإسلام قد أبرز عبر التاريخ قدرته على الأخذ والعطاء والتعايش والتفاعل، وأنه قادر على لعب أدوار مختلفة في العصر الحديث[2]. إنه انهمام وتتبع وفهم وجد بيرك نفسه من خلاله منخرطا في النقاشات الداخلية للعالم الإسلامي، حيث يقول صراحة: "ترجمتي للقرآن تجعلني، أنا كاثوليكي الديانة، أدخل اليوم في نقاش بين إسلام التنوير وإسلام الظلامية. لذلك كان لي –ولا يزال– الامتياز و–المخاطرة – لدراسة هذه المجتمعات من الداخل"[3]، وبخصوص هذه الترجمة، يقول بأنه وظف فيها العاطفة، لأن النص القرآني يبدو له سهل الفهم، ويحمل طابعا حيا، وهذا ما جعله يتناوله ليس بالإيمان فحسب، وإنما بالبحث والموضوعية النقدية[4]، لأن جمالية النص القرآني وقيمته الكونية فرضتا عليه توسيع التفكير في مباحث الروح والأخلاق والمجتمع، وذلك لفهم التناقض العلائقي الثلاثي السابق في بناء الإنسان المتوازن، وتوضيح ونقل هذا الفهم إلى الإنسان الغربي والفرنسي بدرجة أولى.

بعبارة أخرى، إن الإسلام الذي فهمه بيرك، والذي على أساسه ستتشكل الأعمدة التي أقام عليها دعوته التجسيرية فيما بعد، –في محاولة للتقريب بين وجهات النظر في حوض البحر المتوسط– هو إسلام الفعل المتجسد لدى الأفراد والجماعات في تفاعلاتها المختلفة، وليس إسلام الثيولوجيين أو إسلام الفقهاء أو إسلام المثقفين، أو حتى إسلام الشعب[5]. وبالتالي فقد تمكن من النأي بمنظومة أفكاره وطروحاته عن التمذهب الطائفي والعقدي، وأنه، بفكره، قادر على تجسير الحوار بين المجتمع الإسلامي بقيمه ومبادئه، والغرب بحداثته ومدنيته المفرطة.

عموما، تستند أطروحته على عدة تخصصات معرفية، فبيرك الأنثروبولوجي[6] والباحث في علم الاجتماع، حتم عليه فضوله ملاحظة الممارسات الشعائرية والأخلاقية والعلائقية للمسلمين والعرب وثقافاتهم كمشارك، حيث لمس سمات التضامن والتعاون والكرامة والشهامة والنخوة والمروءة التي يتمتعون بها، وعايش حركات التحرر بالدول الاستعمارية (المغرب– والجزائر) المطالبة بالاستقلال عن الكولون، ووقف عن كثب على سماتهم وثقافتهم المتميزة والمتفردة. حيث عارض بشدة السياسات الاستعمارية، لأنه كان يعتبر الاستعمار ذلك الجرح العميق بين ثقافة الإنسان وطبيعته[7]، وهو محصلة لحظة تاريخية أفرزها التقدم العلمي التكنولوجي الغربي، وهو لم يكن أبدا من عوامل نقل الحداثة للبلدان المتخلفة، كما يدعي المفكرون اليمينيون. الواضح أن الاستعمار هو الذي كان سببا في تشويه البنيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بهذه البلدان، أما التحديث الذي أتى به

1. مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 23.
2. حسن المجاهيد، "سوسيولوجيا العالم العربي لدى جاك بيرك"، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، المغرب، الطبعة الأولى ، 2012، ص 99.
3. ورد عند مصطفى شريف، "جاك بيرك"، المرجع السابق، ص 25.
4. مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 15.
5. حسن المجاهيد، المرجع السابق، ص 111.
6. نشير هنا إلى الحياد والموضوعية الذين تحلى بهما بيرك في تناول قضايا المجتمعات العربية والإسلامية، وأنه لم ينسق في أعماله وراء أجندات السياسيين الكولونياليين الفرنسيين، ولم يخضع كذلك للتوجهات الحتمية والميتافيزيقية في تفكيك سوسيولوجيا الاستعمار وسوسيولوجيا ما بعد الاستعمار.
7. حسن المجاهيد، المرجع السابق، ص 101.

ISSN:2605-6259

فلا يعدو أن يكون نفثات في مناطق صغيرة، واستهدف من ورائه تسهيل مهام التهدئة والإخضاع والسيطرة، وتثبيت الحكم الأجنبي والسيادة الغربية على المستعمرات.

لقد تابع بيرك، كذلك، عن كتب تداعيات الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على دول حوض المتوسط، الأمر الذي راكم لديه رصيدا هاما من التجربة والخبرة في المسائل الإسلامية والقضايا السوسيو–مجالية، والوقائع والأحداث والحروب والصدامات الحضارية، والأنماط الثقافية للهيمنة الثيولوجية، فأصدر مؤلفه "المغرب العربي بين الحربين"[1] موضحا فيه دور الدين "الإسلامي الصحيح" (العبارة المفضلة لديه) في حل قضايا الصراع والصدام بحوض المتوسط.

ثم إن معايشته للمجتمعات الإسلامية على تنوع مشارب ثقافاتها، مكنته من تعلم اللغة العربية واللغة الأمازيغية واللهجة المصرية من خلال معاشرته للكتاب والفقهاء وعلماء الدين، واطلاعه على مؤلفاتهم والكتابات الأولية والأشعار السابقة عن الإسلام، وهي الشروط والاعتبارات التي دعم بها نقده للاستشراق، والتي على أساسها أرسى مشروعه التجسيري، ليصدع بالدعوة صراحة إلى سعيه نحو تحقيق الانسجام والتسامح بين عالمين متداخلان ومترابطان في إطار حضارة جديدة مشتركة، قائمة على حوار متعدد الأشكال، بعيدا عن التطرف المذهبي والتعصب الإثني والرغبة في الهيمنة[2]، وقد نجازف القول –هنا– وانطلاقا من مؤلفاته "الأندلسيات، درس الختام في الكوليج دي فرانس"[3] و"العرب، متبوعة بالأندلسيات"[4]، أنه كان يأمل في انبعاث أندلس جديدة، تتعايش في كنفها حضارات البحر المتوسط –شمال/جنوب– جنبا إلى جنب، في إطار مشروع جديد سماه بـ "المجموع المتوسطي الإسلامي"، حيث ظل يتشبث بأسطورة الأندلس، ولا يخفي انبهاره وإعجابه بوجود ثلاث عقائد دينية: الإسلام والمسيحية واليهودية في مجال وبيئة واحدة، استطاعت التعايش جنبا إلى جنب في سلام لعدة قرون.

إذا كانت هذه الأطروحة تنبني على تقديس القيم الإنسانية والحوار العقلاني المنفتح، والاحترام المتبادل، وتقبل الآخر المختلف، وأن تحقيق وحدة دول حوض المتوسط، وبناء علاقات قابلة للبقاء، لا يمكن بلوغها –في رأينا– إلا من خلال تقديم بعض التنازلات المتبادلة من جميع الأطراف، فالسؤال –هنا– إلى أي حد تمكن مشروع جاك بيرك الفكري من بناء توليفة تندمج فيها حضارات الضفتين؟

ثانيا: تجسيرية بيرك وتلافي صدام حضاري

لا يتردد بيرك في الإعلان أن الحضارة في البحر الأبيض المتوسط هي حضارة مركبة ومتعددة الروافد، ولازالت كذلك، فهي يونانية رومانية، يهودية مسيحية، وعربية إسلامية[5]، بمعنى أن تواجد هويات غير متجانسة

[1]. Jacques Berque, « Le Maghreb entre deux guerres », Paris, Edition Szuil, 1962.

[2]. مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 26.

[3]. Jacques Berque, « Andalousies, leçon de clôture au Collège de France », Sindbad, 1981.

[4]. Jacques Berque, « Les arabes, suivi des Andalousies », Paris, Actes Sud-Sindbad, 1997.

[5]. مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 18.

ISSN:2605-6259
مجلة ليكسوس –العدد 49 –نونبر2023م.

بالحوض المتوسطي لازالت قائمة، وتحمل في ثناياها رواسب تاريخية ومضمرات خفية ومعلنة. وبالرغم من ذلك، فهو يؤمن بأن شعوب المنطقة قادرة على تحقيق الانسجام والتكامل والوحدة من داخل التعدد، لتجنب صدام حضاري بالمنطقة. ولتحقيق ذلك، يضع بيرك جملة من الشروط، نجملها في المحاور التالية:

1– النظرة الموضوعية تجاه التحولات التاريخية:

تطغى الموضوعية على مختلف أعمال بيرك العلمية، والموضوعية تستلزم الاعتراف، والاعتراف يقتضي، أولا، تفكيك العلاقات الاقتصادية والسياسية التي أقامها الاستعمار للقضاء على مخلفات ورواسب الإرث الكولونيالي، وثانيا، الاعتراف بقدرة الإسلام على دمج قيم الحضارة التكنولوجية دون تخليه عن ضوابطه وثوابته وأصوله، على اعتبار أن نجاح الإسلام في حركته الأولى عندما احتوى قيم وثقافات الحضارات البيزنطية والفارسية والرومانية والهندية، سيكون كذلك –هنا والآن– قادرا على إعادة تشكيل مستقبل العالم، وعلى فتح قنوات الحوار بين الثقافات والأديان والحضارات الواقعة في حوض الأبيض المتوسط[1]، ونجد بيرك يلتقي مع البروفيسور إدوارد براون في قوله: "تكمن قوة الإسلام في بساطته ومرونته ومثله الأخلاقية العالية والتي من الممكن نيلها في الوقت نفسه. لا بد أن نعترف أن المعايير الأخلاقية المسيحية أعلى، ولكنها تقريبا بعيدة المنال بالنسبة للفرد، وبعيدة المنال تماما بالنسبة للدولة. إن الدولة الإسلامية المثالية قابلة للتحقيق، واستطاع الوصول إليها بالفعل خلفاء محمد الذين أتوا بعده مباشرة"[2].

الموضوعية المقصودة هنا هي نشاط لازم هازم للتناقضات والتشنجات التي تعيق سيرورة التقدم والازدهار. فبالرغم من دعوات بيرك المتكررة إلى التحلي بالموضوعية في تناول القضايا العربية والإسلامية، خصوصا من طرف المستشرقين، إلا أن العديد من الكتابات السوسيو–سياسية والاجتماعية الغربية تحجم عن الاعتراف بالدور المهم والفعال للمسلمين والعرب، وتقلل من حجم مساهمتهم في بناء حضارة الغرب وحداثته. فإذا كانت هذه الأخيرة تمتد أصولها إلى التراث اليوناني الروماني، واليهودي المسيحي، والعربي الإسلامي، فإن هذا الامتداد يتم اختزاله، في كثير من الأحيان، فيما هو يوناني روماني يهودي مسيحي، ويغيب عن قصد تأثير الحضارة العربية والإسلامية، ويبخسها حقها ودورها في التطور العلمي والتقني الذي وصل إليه العالم اليوم.

وتظهر موضوعية بيرك كذلك، في براعته على تجاوز فكر ومنهج الاستشراق الكلاسيكي، ونأيه عن استعمال مناهج لم تتأكد فعاليتها، خصوصا المنهج الفيلولوجي والتاريخي والمقارنتي، بل سعى إلى تحديد هذا الحقل على مستوى الموضوع والمنهج، من خلال اعتماده على ملاحظة الواقع والتجربة، وفي تعنته وعدم قبوله الاندماج في الأيديولوجيا الكولونيالية، ورفضه إعادة إنتاج المعرفة السوسيولوجية والأنثروبولوجية

---

1. نفسه، ص 38
2. إدوارد براون، "تاريخ الأدب الفارسي"، ورد عند علي الوردي، "دراسة في سوسيولوجيا الإسلام"، ترجمة رافد الأسدي، الطبعة الأولى، الفرات للنشر والتوزيع، 2013، صص 99- 100.

ISSN:2605-6259
مجلة ليكسوس –العدد 49 –نونبر2023م.

والإثنولوجية التي تتم تحت طلب المتروبول، والتي تخدم أهدافه وسياساته، بل يمكن القول بأن الرجل ساهم في تحديد موضوعات وآفاق سوسيولوجيا ما بعد الاستعمار، لأنه كان على يقين بأن الاستقلال قادم لا محالة، وأنه سيشكل استرجاعا للحق في التاريخ، والحق في التطور، انطلاقا من قناعته بأن الشعوب التي لا تاريخ لها، لا تعرف من أين أتت، ولن تعرف أبدا إلى أين هي ذاهبة، الأمر الذي يفرض بالضرورة تكثيف محاربة جميع أشكال وأنواع الجهل.

2– محاربة الجهل المتبادل:

عمل جاك بيرك على نقد ومحاربة التصورات التي كانت ترى في الإسلام منظومة غير ملائمة لوقائع وقضايا العصر، وأنه ماضوي، ويفتقر إلى مقومات الصمود والقدرة على الاستمرار، وهنا يلتقي مع بريان تيرنر أثناء رده على طروحات ماكس فيبر في: "فيبر والإسلام"، والذي تناوله بتفصيل أكثر في "علم الاجتماع والإسلام: دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر"، حيث نجد بيرك يشير إلى أن الإسلام إبان الحقبة الاستعمارية قد لعب دورا هاما في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية، وأن منظومة القيم التي أراد المستعمر زرعها في مستعمراته، لم تستطع أبدا النفاذ إلى أعماق الشخصية العربية الإسلامية، بل حتى ذلك التنزيل القوي والصارم للقوانين الوضعية التي أتى بها الغرب بقوة العسكر، لم تمنح المستعمر سلطة التحكم في مجريات الأحداث، وإخضاع التاريخ العربي والإسلامي لشروط الاستعمار.[1]

هذه التصورات الاختزالية التي تبلورت عند الغربي، نابعة في الأصل من عدم تقديره لقوة الإسلام الخفية، وكذا تأثيره الكبير على وجدان وشعور المسلم، وسرعته القصوى في توحيد الصفوف، مما أذكى لدى العرب المسلمين الرفض التلقائي لكل أشكال الهيمنة والإخضاع والترويض، حيث خرجت من القبائل والزوايا والجماعات الدينية حركات المواجهة والمقاومة، الداعية لعدم الاستسلام، والعمل على الحفاظ على الهوية العروبية والإسلامية في أبعادها الثقافية والروحية والدينية والشعائرية.

يشير بيرك إلى مسألة في غاية الأهمية بقوله: "لعب الإسلام دورا آخر، فهو لم يعد مستودعا مؤتمنا لحماسات بدون أمل، ها هو الآن يرفض كل تواطؤ، كل شعوذة، كل ماضوية، ليصبح عقلانيا"[2]، بمعنى أنه يتوجب على الغرب –الآن– أن يعترف بأن الإسلام الحقيقي هو ذلك الإسلام الإصلاحي التنويري العقلاني الذي نظر له مفكرون متنورون من أمثال علال الفاسي بالمغرب، وابن باديس بالجزائر، والتعلبي بتونس، وغيرهم، إسلام منفتح عقلاني تقدمي حداثي، بل الأكثر من ذلك، إسلام يدين الإسلام البالي القابع في روحانية مطلقة وعقائدية متكلسة جوفاء.

ومن جانب آخر، يدعو العرب والمسلمين إلى الانفتاح على الضفة الشمالية للمتوسط للنهل من

[1]. حسن المجاهيد، المرجع السابق، ص 113.

[2]. Jacques Berque, « le Maghreb entre deux guerres », Paris, Seuil, 1989, P 71.

ISSN:2605-6259

التقدم التكنولوجي والعلمي، والاغتراف منه بما ينسجم مع قيمهم وثقافتهم، وبما يخدم مصالحهم وغاياتهم، والاعتراف، في ذات الوقت، بأفضال الغرب عليهم وعلى العالم، وأن ما تحقق حتى الآن من ازدهار وتطور ورقي على المستوى الكوني، فقد كان من خلال أنماط وأساليب التحكم في المال والمجال والإنسان في الغرب، أما الإسلام –حسب بيرك– فهو يضيف إلى كل ذلك شرطية الروح من خلال الانسجام والتكامل الذي يبنيه بين الاعتقاد والتفكير العقلاني.

3– إعادة بناء العلاقة بين الإيمان والعقل:

لا تزال قضية العلاقة بين العقل والإيمان تستأثر باهتمام أهل الأديان، خصوصا في الإسلام والمسيحية، لقد سعى عدد من علماء المنطق والفلسفة والسوسيولوجيا والسيكولوجيا إلى البرهنة والاستدلال على تلازم العقل بالإيمان، وتطورت الدراسات في هذا الحقل وأصبحت تجادل وترافع على أرضية معرفية مشتركة، تضم الثقافي والفكري والمنهجي، وتوصلت إلى أن الإنسان يصاب باضطراب وخلل نفسي في غياب الإيمان القلبي والسلوكي، وهذه المتلازمة يشترطها بيرك في تجنب صدام حضاري، وهنا نجده يتفق كثيرا مع ذهب إليه الفيلسوف ابن عربي، فالإيمان قادر على تحقيق الطمأنينة للإنسان، وبالعقل يمكن المحافظة عليها. ونشير إلى أن طروحات بيرك في هذا الباب توافق كذلك طروحات ريتشارد سوينبيرن في كتابه "الإيمان والعقل"،[1] فالإيمان يحدد الهدف، والعقل يتدخل في اختيار الوسيلة وإدراك الأمور وتمحيصها وتقيمها.

في الغالب، يؤدي الفصل المتعمد بين العقل والإيمان إلى انحرافات وتشوهات تظهر في مجرى التاريخ، سواء عند المسلمين أو عند غيرهم، لذلك ظل بيرك ينادي بضرورة إعادة بناء العلاقة بينهما. بمعنى آخر، أن الإنسان المؤمن لا يمكنه بأي حال من الأحوال التخلي عن إعمال العقل. لأنه لا يوجد في الواقع ثيولوجي يرفض العقل بشكل مطلق، فحتى المفكرين الكبار من أمثال باسكال وبيتر دامين ولوثر الذين يرفضون العقلانية، يقرون بوجود خيوط ناظمة بين الإيمان والعقل.

فمن خلال تفكيك طروحات بيرك في هذا المقام، نرى أن هذه العلاقة توجب بعض الشروط، من أهمها: –التزام المسلم بإسلام عقلاني تقدمي وسطي اعتدالي، يدين بدون هوادة الإسلام البالي والمجامل، الذي يحتفظ ببعض الشعائر والممارسات الدينية المبتدعة، التي جعلت منه وسيلة استجداء واسترزاق، كما كان سائدا في فترات زمنية من تاريخ الأمة الإسلامية. فمثلا رجال الدين وشيوخ الزوايا ومريديها اللذين اعتبروا سابقا من أبطال الصمود، أصبحوا في فترات الانحطاط خونة سياسيا، ورجعيين اجتماعيا، وأصدقاء الإدارة[2]، وخدامها.

[1]. Richard Swinburne, « Faith and Reason », Second Edition, Clarendon Press, Oxford, 200, pour plus de détailles راجع ترجمة آرين عبد الحميد الجلال، دار جداول، بيروت، الطبعة الأولى، 2017.

[2]. جاك بيرك، "المغرب العربي بين الحربين"، ورد عند مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 115.

–نبذ همجية القيم الاستعمارية، وضرورة احترام كرامة الإنسان وثقافته بغض النظر عن أيديولوجياته، ورفض جميع التعارضات القائمة بين قيم الهيمنة والتسلط الغربي وقيم "الإسلام الصحيح"، إسلام عقلاني حداثي، والسعي إلى تشكيل تفاعل بينهما لعصرنته وتكييفه وفق أفكار ومشاريع تخدم الإنسان والمجتمع والصالح العام.

–تصحيح النظر وإعمال التفكير العقلاني المنصف للتاريخ الإنساني العربي بالخصوص من طرف الآخر الغربي، والتحلي بالشجاعة في الاعتراف بقوة تأثير الدين الإسلامي في الواقع، لأن في ذلك تصحيح للمواقف والقناعات، ووضع الأمور في سياقها الصحيح، فالتاريخ في مفهومه العام هو ملك لكل الإنسانية، وبهذا سيتمكن الإنسان الغربي من هدم عقدة احتكار القيم الحضارية، والانفراد بالنزعة العقلانية الإنسية، وتحطيم معيارية الحداثة الغربية في الحكم على أي محاولة أو تجربة تحديثية جديدة أو مختلفة من أي كان وفي أي مكان.

إن التقيد الخطي بالشروط الآنفة من طرف شعوب البحر الأبيض المتوسط، من شأنه أن يحقق الانسجام ليس بين العقل والإيمان داخل الفرد الواحد فقط، وإنما سيحقق كذلك الوحدة والتآلف بين هذه الشعوب، في إطار براديغم إسلامي تنويري.

4 – إسلام التنوير وتحديث العالم الإسلامي:

يوجد في القرآن الكريم –حسب بيرك– دعوة صريحة وواضحة إلى التجديد وإعمال التفكير التأملي، والانفتاح على العالم وعدم عزل النفس، لذلك نجده في "إعادة قراءة القرآن" يصر على نضارة الرسالة الأصلية، والتعلم من الأخطاء، والتطلع واستشراف غد أفضل[1].

إسلام التنوير الذي ضل بيرك ينادي به ويؤكد عليه طيلة حياته، يتعارض مع الإسلاموية باعتبارها انحرافا وبدعة بل معاداة للإسلام، وهي التي تشوه الحداثة، وتحجب الإسلام عن الآخر، لأنها تتناقض مع القرآن، ومع أقوال وأفعال الرسول الكريم، ومع محمولات تاريخ الأمة المسلمة، وأن الخلل يكمن في أولئك الذين يتعنتون في رفضهم لمسيرة الزمن، ورفضهم للآخر المختلف وللعالمية[2]، يصرح بيرك بقوله: "لا يمكن للمرء في الوقت ذاته أن يسمح لنفسه التأصيل بالمبادئ والقواعد والجذور وإهمال تحديث إمكاناتها"[3]. فالتنوير في نظر بيرك هو إسلام إشكالي يقوم على الاجتهاد، وينبذ التقوقع والانزواء المذهبي والعقائدي، إسلام متمكن من الأخذ والعطاء والتعايش والتفاعل، ولعب أدوار مختلفة في العصر الحديث، لأنه الدين الوحيد الذي يخترق جميع مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتنظيمية، إسلام قادر على الصمود والتحدي، وتجاوز المعضلات السيكولوجية والعلائقية للإنسان المعاصر. وهذا ما جعله يعترف صراحة بقوله: "ربما يكون الإسلام أكثر الأنظمة الدينية

[1]. مصطفى شريف، نفس المرجع، ص 46.
[2]. نفسه، ص 47.
[3]. Jacques Berque, « Le Monde diplomatique », Avril, 1990.

التي تهتم بشكل ثابت بسد ثغرة الكهف المحفور في الوجود ووجدان الرجل المعاصر"[1].

ثم إن الفكرة التي وضعها الغرب عن الإسلام نادرا ما تسمح له بالحوار، لذلك عمل بيرك على فك العزلة عن الإسلام، وقد توفق في ذلك، من خلال وضعه (الإسلام) في إطار زماني تاريخي ومكاني علائقي، ونبذ جميع أشكال الأطر التفسيرية الشائعة في علم الاجتماع الغربي حول الدين الإسلامي، كنظرية الاستثناء الاسلامي في تقبل الحداثة، ونظرية الاستبداد الشرقي، ونظرية العصبية العربية، ونظرية الإسلام بلا مجتمع مدني، ونظرية البدو المحاربين والحكومة الوراثية عند ماكس فيبر، ونظرية أسلوب الإنتاج الآسيوي عند كارل ماركس، وغيرها كثير.

يمكن القول أن إسلام التنوير هو ذلك الإسلام الذي يحمل الإنسان المسلم على الاندفاع نحو أهداف الحياة الدنيا دون تجاهل أهداف الآخرة، ومن دون التخلي عن قواعد الدين والشريعة، حيث يوازن بين الأبعاد الأساسية للطبيعة البشرية: الطبيعة والروح والعقل، وهذه الموازنة هي ما يفتقر إليها مجتمع الشمال، حيث يغيب البعد الروحي، فيجرد الإنسان من إنسانيته ويسقطه في الحيرة والظلامية والشمولية.

هذه باختصار أهم الشروط التي تنبني عليها أطروحة جاك بيرك "التجسيرية"، وهي التي تمنحها في الوقت ذاته الأهمية في تجنب صدام حضاري بحوض المتوسط، فأين تتجلى هذه الأهمية؟

ثالثا:أهمية تجسيرية بيرك بحوض البحر الأبيض المتوسط

عانت المجتمعات العربية مع منتصف القرن الماضي وبعده، عقب حصولها على استقلالها السياسي، من تداعيات المرحلة الكولونيالية، حيث فقدت هذه المجتمعات قيم التطور والازدهار، كما فقدت ما كانت تنعم به من حرية وكرامة، تحت دعوات وشعارات ومغالطات تقدمية واشتراكية، الأمر الذي جعلها تعاني من انقسامات وحزازات وصراعات طائفية، لذلك، دعا بيرك إلى تصحيح جميع هذه الأخطاء، انطلاقا من الرجوع إلى "الإسلام الصحيح" و"الإسلام الإشكالي".

يقول بيرك في كتابه ذاكرة الضفتين: "لو أن المسؤولين الفرنسيين أعاروني انتباههم كما فعل العدد الأكبر من صانعي القرار العرب، لأمكننا أن نتجنب سوء التفاهم الذي نشأ بين الأمتين في حالات كثيرة"[2]. نجده هنا يحمل صراحة الطرف الفرنسي المتعنت والمتمركز على الذات والمتشبع بقيم الهيمنة، القسم الأكبر من المسؤولية في التباعد والصدام الحاصل الآن، ويبدو كذلك متأكدا من فعالية وصفته التجسيرية في حل القضايا المستعصية بين كيانات الضفتين، مع إصراره على التشبث بالهوية المتفردة والمميزة لكل مجتمع، ونجد هذا الطرح في جوابه حول سؤال شخصي، حول ما إذا كان قد اعتنق الدين الإسلامي، يقول: "كيف أنا الذي قضيت حياتي في الدرس

[1]. Jacques Berque, « L'islam au temps du monde », édition Actes Sud, Paris, 2002, P 239.

[2]. للتوسع أكثر يطلع على: Jacques Berque, « Mémoires des deux rives », Paris, Edition Seuil, 1989

ISSN:2605-6259
مجلة ليكسوس –العدد 49 –نونبر2023م.

والتحليل للمجتمعات الإسلامية ناصحا إياها بالتمسك بهويتها وأصالتها أن أتخلى عن هويتي وأصالتي"[1]. يقصد أن التفاهم مع الأخر يكون من خلال الرقي بالخلافات، وتحمل صدمات العصرنة – من كلا الجانين– في أبعادها التنموية والاقتصادية والسياسية والثقافية، والاعتراف بأشكال التلاقح والتأثير والتأثر الذي لا محيد عنه.

يمكن الجهر بالقول بأن الإسلام قد صعب من مأمورية نمذجة العالم ومعيرة باقي المدنيات على غرار مدنية الغرب، والتي حاولت القوى المهيمنة فرضها ليس فقط على الشعوب المتخلفة، وإنما على جميع الأمم، وقد استطاع الإسلام أن يواجه، بل وأن يتفوق على الديكتاتوريات الإيديولوجية، الليبرالية والاشتراكية، ويخضعها لشروطه، لأنه تتوفر فيه عناصر الصمود والتكيف والتجاوز، ولا يرفض التعامل والتفاعل، ولا يعارض المثل الأعلى الديمقراطي، والعالمية والاستقلالية الفردانية الحديثة[2].

لدى يمكن القول أن دول الضفة الشمالية في حاجة ماسة اليوم –قبل الغد– إلى إعادة التفكير في سياساتها الانفرادية والمتعالية والمتسلطة، والالتفات نحو تجسيرية بيرك علها تقرب بين الشمال والجنوب. نجد هذا الطرح في قوله: "إن العنف الذي يواجه به الإسلام، ليس موجها ضد الكفار، ولكن ضد إيديولوجيات تتنافس من أجل زعامة الكون: اللائيكية الوضعية، والوجودية والماركسية..."[3].

بناء على ما سبق، تبدو أطروحة بيرك ضرورة ملحة لتجنب تشنجات العلمانية وتغول الرأسمالية بحوض المتوسط، من خلال تكسير الصورة النمطية حول الإسلام باعتباره منظومة رافضة للتحديث، ودحض الفرضيات الشائعة التي أنتجها علم الاجتماع الكلاسيكي الماركسي والدوركايمي، والاستشراق بحقليه الحديث والقديم، والتي شكلت عقبة ابستيمولوجية أمام تفسير وتحليل وفهم الظاهرة الإسلامية. فالمسلمون، اليوم، أثبتوا أن بإمكانهم عيش الحداثة والتقدم، وقادرون على تجاوز الفجوة التي نشأت بين الماضي والحاضر، وتصحيح الاختلالات بين المبادئ والقيم والواقع، وبين الممارسة اليومية والأطر النظرية، انطلاقا من أن الإسلام كمنظومة متكاملة احتضنت الديانات السماوية واستوعبت فكر الحضارات القديمة.

فالعلاقة بين الغرب والإسلام قائمة منذ ظهور هذا الأخير على الجدال والحوار، وتوجب على الدول الإسلامية –اليوم– إن أرادت أن تلحق بركب الحداثة، وتواكب التقدم العلمي والتكنولوجي، بعد الجمود الذي عرفته في مراحل تاريخية معينة، في الوقت الذي تحافظ فيه على خصوصياتها ومميزاتها الحضارية، أن تخرج، أولا، من خطر الانزواء عن الحركية السريعة للعالم، ثم أن تحترس ثانيا من الضياع والتيه في هذه الحركية عند الارتماء في أحضانها، وهذان الشرطان كفيلان بتحديث وعصرنة وتقدم الضفة الجنوبية، وتحقيق الانسجام

[1]. مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 104.

[2]. مصطفى شريف، المرجع السابق، ص 29.

[3]. Jacques Berque, « L'Islam au temps du monde », Paris, Sindibad, 1984, P 248.

والتفاهم، وتجنب صدام حضاري مع كيانات الضفة المقابلة.

رابعا: تعقيب تخريجي

في تعقيبنا على تجسيرية جاك بيرك، ننطلق من البداهة الإنسانية التي تؤكد على عدم وجود مجتمعات متخلفة، بل الأمر متعلق بمجتمعات ينقصها التحليل فقط، تحليل الإمكانات والقدرات، وتحليل الفرص المتاحة والتهديدات، وهذه النزعة الإنسية تفرض تبادل الاحترام بين جميع الأمم بغض النظر عن جنسها وثقافتها وعرقها. فالغرب الأوربي يجعلها مقتصرة فقط على المنتسبين إليه، وهنا مكمن الخلل، حيث تعمد تغييب العقلانية في كل شكل من أشكال الحضارات غير الغربية، فجعلها دريعة لتبرير رغبته الشديدة في الاستيلاء على العالمية، وهي عالمية يبدو في ظاهرها أن المتطرفون من كلا الجانبين يسعون جاهدين إلى صناعتها بشروط اختزالية تتوافق وخصوصيات أهدافهم الضيقة.

لذا، إن تجاوز التشنجات والصراع القائم بين الضفتين، –على الأقل– والاتجاه إلى الأخذ بتجسيرية بيرك نعتقد –في نظرنا– وبناء على الطروحات التي يعرضها في هذا الشأن، تكثيف فرص التقارب من كلا الجانبين مع الأخذ بالعناصر التالية:

–الاعتراف بالعلاقات الجيدة التي بنتها المجتمعات الإسلامية في حركتها الأولى، والمساهمات المثمرة لدولة الإسلام عبر تاريخها الطويل، ورصيدها الثقافي والعلمي في ظهور وتشكيل النهضة الغربية،

–تجاوز تداعيات العلاقات المتضاربة، والصراعات بين الشرق والغرب، الناجمة عن الحروب الصليبية، وجهود نزع الطابع الإسلامي من التراث الأوربي، من طرف مناصري المركزية الإثنية، ودعاة الميل إلى الانفصال والتمييز والفردانية بالحوض المتوسط،

–تصحيح المواقف والتصورات حول الإسلام، من خلال فهم "الإسلام الصحيح" بعيدا عن التناقض الحاصل والملاحظ بين التنظير التشريعي والممارسة الفعلية على أرض الواقع، والتشردم الطائفي الصارخ في البلدان الإسلامية وبينها، وتعثر تكييف مجتمعاتها حسب تحولات ومستجدات الواقع الكوني،

–إنهاء أشكال الارتباطات والتبعية والخضوع لهيمنة دول الشمال، بفعل استمرار التبادل غير المتكافئ بين الجانبين،

–بناء وإعادة بناء المعرفة المتبادلة حول المسائل المتناقض والمختلف بشأنها، والسعي الحثيث إلى ترميم أزمة المعنى التي يتخبط فيها الغرب، نتيجة استفحال العلمانية واللائكية والرأسمالية المتوحشة، وأزمة تعثر شروط التنمية بدول الضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

ويمكن أن نضيف إلى العناصر السالفة، أن السلطة الفكرية التي مارسها الغرب على الشرق قد تفككت أواصرها، والمسؤولية –الآن– أضحت مشتركة، فلا يمكن طمس البعد العربي بمحمولاته في الحضارة الأوربية، وكذلك لا يمكن التغاضي عن التأثير الثقافي الأوربي عقب مأساة الهجمة الاستعمارية وتداعياتها في المجتمع العربي، بل إن ظروف المرحلة ونمط

التكتلات والاتحادات توجب إعادة الاعتبار للتاريخ المشترك، والتقارب والجوار الجغرافي.

إذن، ومن خلال استقراء مجمل ما خلفه بيرك، يمكن القول أن الرجل قدم تحليلا وفهما وتفسيرا معمقا لحقل السوسيولوجيا عموما، وسوسيولوجيا الإسلام خصوصا، حيث عمد إلى تخليص العلوم الاجتماعية من هيمنة الأيديولوجيات السائدة واللغة المعتادة، وتمرد على النموذج الغربي في السوسيولوجيا على أنه النموذج الأمثل. إلا أننا نؤاخذه على عدم اهتمامه بتوظيف النظريات والمفاهيم والمقاربات السوسيولوجية في تفسير وتحليل وفهم سوسيولوجيا الإسلام والقضايا والوقائع الاجتماعية المرتبطة بها، ونؤاخذه أيضا على عدم التفاته إلى الكتابات التجديدية التي ربطت حاضر المسلمين بماضيهم، خصوصا فكر ناصر أبو زيد وتوفيق الطويل وجابر عصفور، أو فكر جمال المرزوقي وعبد الرحمن بدوي ومحمد عاطف العراقي وغيرهم، كما أنه تعمد تغييب الآراء المتعارضة في التراث الإسلامي حول القرآن، وفي هذا الصدد نجد بيرك يضع النص الإلهي في منزلة النص الأدبي أو الفلسفي. بالرغم من ذلك، فإننا نثمن جهده الكبير في تأسيس فكر مجدد تجاوز به حقل الاستشراق، وتمكن ببراعة من تخطي كلاسيكياته، بل عمل على تقويض أسسها، وسعى إلى تلميع صورة فكره في عيون الانتليجنسيا الغربية كما العربية.

فإذا كان قسم من المستشرقين قد حصر الإسلام فقط في الغيبيات والروحانيات، وقسم منهم حكم عليه بعدم قدرته على التكيف والتفاعل مع الحضارات والديانات الأخرى، وقسم ثالث كان أكثر توفيقيا، يدفع بالإسلام إلى التكامل والاتحاد مع الديانات السماوية المسيحية واليهودية، فإن بيرك كان قد اختار له طريقا مختلفا، تمثل في مد الجسور لكن –بحذر شديد– بين الإسلام الصحيح وباقي الديانات والمذاهب الأخرى، مع دعوته للمحافظة على الخصوصيات المميزة لكل واحد منها، دون ذوبان أو انصهار.

ثم إن قبول الرجل بفرضية الوحي الإلهي "القرآن"، كما أشرنا آنفا، نلمس فيها اعترافه بقدرة الإسلام على تصويب الانحرافات التي أحدثتها العلمانية والرأسمالية واللائكية، أما صراحته في الكشف عن التكامل المتعدد الأبعاد الذي يبنيه الدين الإسلامي بين الطبيعة البشرية والروح الإنسانية والذات العاقلة، هو ما منحه باستحقاق لقب رجل الضفتين، فالمستشرق البريطاني جيب هاملتون —مثلا– يصنفه كمستشرق بالوراثة وسوسيولوجي بالممارسة، اعتبارا لحجم الرهانات المعرفية والفكرية التي وضعها على عاتقه، وأسلوبه في التجسير بين الإسلام المتوسطي وأوروبا المسيحية.

لقد تجاوز بالفعل الحواجز الزمنية، وتمكن من بناء جسر يربط بين ماضي وحاضر ومستقبل العرب والمسلمين من جهة، وبينهم والغرب من جهة أخرى، وقد نجح إلى حد ما في مسعاه، حيث حافظ — شخصيا– على الحدود الفاصلة بين الإسلام والمسيحية، فهو الكاثوليكي الذي أراد أن تقرأ عليه سورة الفاتحة خلال تأبينه بالكنسية عندما تحضره الوفاة.

أما اليوم، فمستقبل حوض البحر المتوسط في حاجة كبيرة إلى تجميع الكفاءات والقدرات، وتكثيف الاستثمار الاقتصادي في الضفة الجنوبية، وتعزيز فرص التنمية المتوازنة شمال/جنوب، والاستفادة من إسلام تنويري حداثي في تأسيس أسلوب ونمط حياة جديد، قائم على التكامل بين ما هو طبيعي روحي وما هو ثقافي مادي، وذلك لتجويد حالة الإنسان بهذا المجال الحيوي والهام، وتوفير مزيد من السعادة المشتركة لشعوب كلا الضفتين.

البيبليوغرافيا:

باللغة العربية

- أرماندو سالفاتوري، "سوسيولوجيا الإسلام: المعرفة والسلطة والمدنية"، ترجمة ربيع وهبه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2017،
- إدوارد سعيد، "الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء"، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981،
- برايان تيرنر، "علم الاجتماع والإسلام، دارسة نقدية لفكر ماكس فيبر"، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر، دار القلم، بيروت، 1978،
- حسن المجاهيد، "سوسيولوجيا العالم العربي لدى جاك بيرك"، مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، مراكش، المغرب، الطبعة الأولى ، 2012،
- عبد السلام المنصوري، "من نقد الاستشراق إلى سوسيولوجيا الإسلام، جدلية الشريعة والاجتماع في مشروع وائل حلاق"، مؤمنون بلا حدود، بحث محكم، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، 5 شتنبر 2019،
- علي الوردي، "دراسة في سوسيولوجيا الإسلام"، ترجمة رافد الأسدي، الطبعة الأولى، الفرات للنشر والتوزيع، 2013،
- محمد جسوس، "العقلانية والمشروع العربي"، مجلة الوحدة، العدد 26-27، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1986،
- مصطفى شريف، "جاك بيرك"، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب الطبعة الأولى، 2019،
- وائل حلاق، "الشريعة: النظرية والممارسة والتحولات"، ترجمة كيان أحمد حازم يحيى، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، 2018،

باللغات الأجنبية:

- « France and the Classical Sociology of Islam, 1798-1962», Burke, III, E. In: The Journal of North African Studies, Vol. 12, N°4. (551-561), (2007),
- Jacques Berque, « L'islam au temps du monde », édition Actes Sud, Paris, 2002,
- Jacques Berque, « Une Cause jamais perdue, Pour une Méditerranée plurielle », 1955, Paris, Albin Michel, 1998.
- Jacques Berque, « Les arabes, suivi des Andalousies », Paris, Actes Sud-Sindbad, 1997,
- Jacques Berque, « Relire le coran », Albin Michel, 1993
- Jacques Berque, « Le Coran, Essai de traduction », Paris, Sindbad, 1991 – Albin Michel, 1995.
- Jacques Berque, « Le Monde diplomatique », Avril 1990.
- Jacques Berque, « le Maghreb entre deux guerres », Paris, Seuil, 1989,
- Jacques Berque, « Mémoires des deux rives », Paris, Edition Seuil, 1989
- Jacques Berque, « Aspects de la foi de l'Islam », Bruxelles, Publications des Facultés Saint Louis, 1985.
- Jacques Berque, « L'Islam au temps du monde », Paris, Sindibad, 1984,
- Jacques Berque, « Andalousies, leçon de clôture au Collège de France », Sindbad, 1981.
- Jacques Berque, « l'Orient second », Paris, Galimard, 1980.
- Jacques Berque, « L'Islam au défi », Paris, Gallimard, 1980.
- Jacques Berque, « Langages arabe du présent », Gallimard, 1974.
- Jacques Berque, « Maghreb, Histoire et Société Alger », Duculot/S.N.E.D, 1974.
- Jacques Berque, « La maintenance de l'Islam », 1966,
- Jacques Berque, « Le Maghreb entre deux guerres », Paris, Edition Szuil, 1962
- Richard Swinburne, « Faith and Reason », Second Edition, Clarendon Press, Oxford, 2005.